زايد الخير

سيرة زايد الإنسان

سيرة إنسانية لقائد استثنائى

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

زايد الخير

أسم المؤلف: إكرام عيد

الطبعة الأولى

–

التدقيق اللغوي: دار الفراعنة

التجهيزات الفنية والطباعة:

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

- رقم الإيداع: 10608 / 2025م
- الترقيم الدولي: 2 – 44 – 8883 – 977 – 978

- الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الدار، بل تعبر عن رأى المؤلف فى المقام الأول.
- حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة، للناشر، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا، أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف ومن الناشر.

إكرام عيد

زايد الإنسان

سيرة زايد الإنسان
سيرة انسانية لقائد استثنائى

سيرة قائد

2025

الإهداء الأول

إلى المتَقِد معنىً وإنسانيةً

إلى روح زايد الخير

إلى من أضاء درب أمة ومضى.

إلى الذي فهم لغة الأرض، فأنطقها نماء،

وعلّم الرمل أن يصير وطنًا،

والإنسان أن يكون نبيلاً ولو في أقسى الظروف.

إليك يا زايد الخير هذا الحبر باقة امتنان،

وهذه الصفحات ظلال نخيل زرعتها ذات حلم.

سلامٌ عليك في الخالدين

وسلامٌ لنا، كلما حكينا اسمك، فكبر فينا الوطن.

الإهداء الثانى

إلى الذي علّمني أن الكتابة يمكن أن تكون طاعة.

يا شيخ زايد . . .

لـم أرك، لكنني رأيت وجهك في عيون من أحبّوك،

وسمعت صوتك في صمت الصحراء حين تشتاق لظلّك.

كتبتُ سيرتك كما تزرع البنت شجرة في حديقة أبيها ،

بكل الحب، بكل الإيمان،

بكل الخوف ألا تكون كافية.

سامحني إن قصّرت،

لكنني وعدت نفسي أن أُخبر العالـم :

أنّك لـم تكن مجرد فصل في تاريخ،

بل كنت أنت الحكاية كلّها .

إكرام عيد

مقدمة

زايد الخير حين يصبح الإنسان وطنًا

ما الذي يجعل رجلًا واحدًا، من قلب الصحراء، يزرع على وجه العالم ملامح وطنٍ لا يُنسى؟

كيف لتحرّك خطواته في الرمال أن يغيّر مصير شعب، ويُعيد تشكيل الجغرافيا والروح والذاكرة؟

وهل يكفي لقب "حاكم" أو "رئيس" أو "مؤسِّس" حين نتحدث عن الشيخ زايد؟

كلا الشيخ زايد لم يكن منصبًا ولا لقبًا.

الشيخ زايد كان حكاية.

في زمنٍ عربيٍّ مضطرب، حيث تهشّمت المعاني وتبعثرت الحدود ظهر رجلٌ يحمل في عينيه حكمة البداوة ونُبل السلالة وذكاء الفطرة. لم يكن خارقًا، لكنه كان استثنائيًا بما يكفي ليجعل من الحُكم أبوّة ومن السياسة رعاية، ومن الوطن حديقة تُسقىٰ بالعدالة والرحمة.

فالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، لم يصنع دولة فحسب، بل شكّل وعيًا وصاغ خريطة جديدة لمعنىٰ القيادة:

قيادة تُصغي، وتحنو، وتتقدّم دون ضجيج.

قيادة لا تُبهرها الكاميرات، بل تستمد شرعيتها من نبض الناس، من دعاء أمّ، من دمعة فقير جففها بكفّه.

هذه الكتاب ليس سيرة تقليدية، وليس سردًا أرشيفيًا لأحداث محفوظة، بل هي محاولة جريئة للغوص في عمق الإنسان الكامن خلف الأسطورة.

أن نعيد تشكيل زايد بعيون شعبه، بأصوات من عرفوه، بأحلام من لم يروه، لكن يعيشون في ظله.

كتبتُ "زايد الخير "وأنا أستحضر المعاني لا الوقائع فقط، الظلال لا الأضواء، الصمت النبيل خلف القرارات، والتفاصيل الصغيرة التي لم تُوثَّق، لكنها صنعت الفرق.

زايد في هذا الكتاب ليس فقط القائد المؤسس، بل هو الجدّ في خيمة المساء، والصوت في إذاعة الفجر، والظل الذي لم يختفِ بعد الرحيل.

هو مزيجٌ نادر من النُّبل العربي، ومن ذكاء الإداري وبصيرة الرائي ومن حنان الأب القريب إلىٰ الناس، حتىٰ في قصره.

يبدأ هذا الكتاب بميلاد الحكاية في "قلعة الحصن"، ولا ينتهي عند وداعه الأخير لأن بعض الأشخاص لا تنتهي قصصهم بالموت، بل يبدؤون بعدها في التحوّل إلىٰ ميراثٍ حيّ، يُروىٰ للأبناء كما تُروىٰ القصص الكبرىٰ، التي نعلّقها في وجداننا لا في جدران المتاحف.

إلىٰ كل من أحبّ زايد...

إلىٰ من لم يعرف إلا اسمه،

لكنه شعر بيدٍ غير مرئية تحميه، وإلىٰ الجيل الجديد الذي لم يراه، لكنه يسمع عنه كأنّه أسطورة، هذه الكتاب لكم، لكي تعرفوا أن بعض القادة لا يُذكرون في النشرات فقط، بل يُروَون... كالشعر ويُتبعون... كالأدعية.

في هذا الكتاب ، اخترتُ أن أبتعد عن الصيغة التقريرية التقليدية للسير الذاتية، فزايد، بما يمثله، لا يليق به السرد الجاف، ولا يؤطَّر داخل حدود التوثيق البارد.

بل حاولتُ أن أقدّم سيرةً روائية، تمزج بين:

الحقائق التاريخية المستندة إلىٰ محطات معروفة في حياة الشيخ زايد

والدراما الإنسانية التي تستخرج جوهر الشخصية لا قشرتها

والأسلوب التأمّلي الأدبي الذي يلامس الروح قبل العقل

والصوت الشعبي الذي يروي الحكاية كما تُروىٰ الأساطير بصوت القلب.

اعتمدتُ علىٰ تنويع الشكل السردي بين المشهد الدرامي، والوثيقة المتخيّلة، والرسائل، والوصايا،
وذلك لإبراز زايد لا كـ"رجل سياسة" فحسب، بل كـ"أب مؤسِّس" و"قائد روحي" و"نموذج إنساني" نادر في الزمن العربي الحديث.

بهذا التكوين، يندرج هذا الكتاب تحت تصنيف السيرة الروائية

التاريخية ذات النزعة التأملية الوطنية

وهي كتابة لا تدّعي الإحاطة، بل تحاول الإضاءة

لأن زايد، ببساطة، لا يُكتب عنه... بل يُستلهم.

إكرام عيد

يونيو 2025

الفصل الأول

حين تهمس الصحراء باسم زايد

قالوا إن الصحراء لا تُنبت لكنها أنبتت رجلاً غيّر وجهها، ووهبها قلبًا .

كنتُ أبحث عن المعنىٰ الحقيقي للقيادة.
ليست تلك التي تُسجَّل في كتب التاريخ بحبرٍ بارد، ولا التي تُعلَّق علىٰ جدران القاعات الرسمية.
كنتُ أبحث عن رجلٍ جعل من الصحراء وطنًا، ومن الفرقة وحدة ومن الحلم حقيقة تسير علىٰ الأرض.

قال لي أستاذي في أول محاضرة ألقيها عن "بناء الدول:"

"إن أردتِ أن تفهمىٰ كيف تُبنىٰ الأمم بالعقل والحكمة، فابدئىٰ بالشيخ زايد".

زايد الاسم مألوف، لكن صداه لم يكن قد اخترق وجداني بعد.
منذ تلك اللحظة، بدأت رحلتي.

ركبت طائرة متجهة إلىٰ أبوظبي.

لم أكن أعلم أنني لست مسافرة في الجغرافيا فقط، بل في التاريخ والوجدان.

حين هبطت الطائرة، لم تُدهشني الأبراج الزجاجية، ولا الطرق الواسعة، ولا حتىٰ تلك المدن التي خرجت من رحم الرمال.

ما شدّني كان وجهه.

وجه زايد.

تطلّ صورته من كل زاوية: في المدارس، علىٰ العملات، في قلوب الناس، وفي لغة العيون التي تنطق بالامتنان.

كأن روحه لا تزال تمشي بينهم، بهيئة نخلة، أو ظلّ نخلة.

انطلقتُ صوب "العين"، المدينة التي شهدت بواكير حياته.

في الطريق، كان السائق، رجل ستيني بملامح بدوية أصيلة، ينظر إليّ من مرآته بين الحين والآخر.

سألني بلطف:

–أول زيارة لكِ للإمارات؟

أجبتُ: نعم، جئت لأكتب عن الشيخ زايد.

ابتسم كمن يُمسك بسرّ قديم وقال:

–زايد لا يُكتَب عنه... زايد يُعاش.

كلمته اخترقتني. لم أفهمها تمامًا حينها، لكنني شعرت بثقلها.

احتفظتُ بها كعلامة على بداية الكشف.

في "العين"، شعرت أن الأرض تتنفس التاريخ.

رمالها لم تكن صامتة، بل كانت تهمس كلما مررت بها: "هنا مشى زايد."

في كل نخلة ظلّ، وفي كل حجر أثر.

حكوا لي عن الصبيّ الذي كان يسير خلف والده، الشيخ سلطان بن زايد، بعينين تلتهمان المشهد.

يتأمل الرجال، يستمع إلىٰ قصص الجدود، يراقب الصقور، يتعلّم من الريح كيف تصمد.

لم يكن صبيًّا عاديًا. كانت خطواته تحمل نبوءة.

قالوا إنه كان يغرس الشجر، لا ليأكل ثماره، بل ليُطعِم من يأتي بعده.

كان يحاور البدو والبسطاء، لا يتعالَىٰ، بل يُصغي ويستوعب.

وحين أصبح حاكمًا، لم يتغيّر، بل كبر قلبه أكثر.

ذات مساء، جلستُ بجوار نخلة معمّرة في أحد بساتين العين.

رجل طاعن في السن كان يُدلّك جذعها بيده كمن يُطبطب علىٰ كتف صديق قديم.

اقتربتُ منه، فسألته:

–هذه النخلة... كم عمرها؟

نظر إليّ بعينين رطبتين وقال:

–زرعها الشيخ زايد بيده. كنتُ هناك. كان شابًا في العشرين، حفَر

بيديه وسقاها بنفسه. قال لنا يومها: "هذه أول النخل، وستكون لنا فيها حياة".

سألته:

–وهل تعتقد أن النخلة تذكره؟

ابتسم وقال:

–بل أظنها تبكيه كلما مر النسيم.

نظرتُ إلىٰ النخلة، إلىٰ جذورها المغروسة في عمق الأرض، وإلىٰ السماء فوقها، فشعرت أنني أمام شيء أكبر من مجرد تاريخ أنا أمام روح وطن.

لم يكن يحمل سيفًا حين تولىٰ الحكم، بل حمل قلبًا، ونظرة بعيدة لا تراها العيون المتعجّلة.

حين وصل إلىٰ حكم مدينة العين عام 1946، لم يكن في المدينة ما يُغري، ولا ما يُبشّر.

كانت الرمال تملأ الأفق، والماء شحيح، والناس في ضيق العيش والخوف جليسهم كل مساء.

لكن زايد، الفتىٰ الذي تربىٰ علىٰ صوت الريح، رأىٰ شيئًا لم يره غيره.

لم يكن منصبه سلطة، بل مسؤولية.

جلس مع الناس، سأل عن حاجاتهم، دخل بيوتهم من دون حاشية وكان أول ما فعله أن أمر بفتح قنوات للريّ، وتنظيم توزيع الماء علىٰ الجميع.

قال لأحد مستشاريه يومًا:

"الحاكم الذي لا يسقي أرضه، كيف يسقي قلوب شعبه؟"

في العين، لم يُشيد القصور، بل شقّ السواقي.

لم يطلب حرسًا مشاة، بل طلب عمالًا لحفر الآبار.

كان يتحرك بين البيوت كواحد من أهلها، يجلس مع الأطفال، يستمع لشيوخ القبائل، ويُشرف بنفسه علىٰ إصلاح الطرقات الطينية. ولم يكن غريبًا أن تبدأ الناس تُقسم باسمه وتقول:

"ما دام زايد موجود الخير قادم".

أحب الناس فيه تواضعه، لكنهم احترموا فيه أيضًا شجاعته. فحين اعتدىٰ بعض الخارجين علىٰ القانون علىٰ قوافل الغذاء القادمة للعين، خرج بنفسه، علىٰ صهوة فرسه، يتقدّم الرجال لا يتأخرهم.

لم يُطلق رصاصة، بل أطلق كلمته:

"من يقطع رزق الناس... قطعتُ عنه رزق السلاح".

فهابوه، وأحبوه أكثر.

وفي عام 1966، حين تولىٰ زايد حكم إمارة أبوظبي، كانت العاصمة في حالة يرثىٰ لها.

نفطها في باطن الأرض، لكن فقرها فوقها.

سكانها القليلون يعيشون في بيوت طين، بلا كهرباء ولا مدارس تُذكر.

لكن زايد لم يرَ سوىٰ الفرصة.

قال في أول اجتماع له مع رجاله:

"ثروة النفط ليست لنا وحدنا، بل لأبنائنا، ولمن يأتي بعدهم... دعونا نزرعها بالعلم والعمل".

وبدأ العمل.

أمر ببناء المدارس والمستشفيات، وفتح الطرق من الخليج إلىٰ الصحراء.

سافر إلىٰ الدول الكبرىٰ، لكنه لم ينبهر بعماراتهم، بل عاد ليبني للناس كرامتهم.

لم يكن يسأل: "كم ستكلف؟"

كان يسأل: "كم ستنفع؟"

في أحد اللقاءات، جلس زايد بين مجموعة من الأطفال في مدرسة حديثة.

سأل أحدهم، بعفوية:

–هل تحب المدرسة يا شيخ زايد؟

ضحك وقال:

–بل أحب من يحبّ المدرسة... لأنهم من سيبنوا المستقبل.

ذلك اليوم، أمر ببناء عشرات المدارس، وقال:

"لا نريد جيلاً يرفع السلاح، بل جيلاً يرفع القلم ويُعمّر الوطن".

لم يكن زايد مجرد "حاكم ناجح."

كان باني وطن.

لم يرَ في الحكم سلطة، بل وسيلة لخلق المعنى، لردّ الجميل للأرض

التي ربّته، وللناس الذين وضعوا ثقتهم فيه قبل أن توضع التاج على رأسه.

زايد، في بدايات حكمه، لم يغيّر فقط شكل المدن... بل أعاد تعريف الحُكم.

لم يرفع جدرانًا تفصل بينه وبين شعبه، بل فتح صدره لهم، وكان إذا مرّ في سوق أو حيّ، قال الناس:

"مرّ زايد، ومرّ الخير معه".

الفصل الثانى

زايد الإنسان

كانت الرمال تفصلهم لكنه رأىٰ بينها جسرًا من الروح. وكانت القبائل تتنازع لكنه رأىٰ فيها نسيج وطنٍ واحد، يُطرّزه الصبر والصدق.

في أوائل السبعينيات، كانت الرياح تهبّ من كل اتجاه، بعضها ساخنٌ بالتهديد، وبعضها باردٌ بالخذلان.
سبع إمارات، كل منها بحدودها، بلهجتها، بشيوخها، ومخاوفها.
لم تكن المسافات وحدها هي ما يفصل بينها، بل التاريخ، والدم والانغلاق الطويل في الخيمة الواحدة.

لكن زايد لم يرَ في اختلاف الرايات تمزيقًا، بل فرصة لتوحيد الألوان.
لم يرَ الخلافات عبئًا، بل مدخلًا للحوار.

كان يجلس ليالي طويلة علىٰ رمال أبوظبي، عينيه تسرحان في الأفق.
يضع حجرًا صغيرًا علىٰ الرمل، ثم آخر، ثم ثالث

وحين يسأله أحدهم:

–ما تفعل يا زايد؟

يبتسم ويقول:

–أبني وطنًا... يبدأ بالحلم، ثم بالكلمة، ثم يصبح حجرًا.

في لقائه الأول مع الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، حاكم دبي، لم تكن الطاولة بينهما تحمل خرائط أو اتفاقات سرّية.

كانت تحمِل كوبين من القهوة وبعض الصدق.

قال زايد لراشد:

"إذا لم نتّحد الآن، لن نجد ما نتحد عليه لاحقًا العالم يتغير من حولنا بسرعة، ولا بقاء للمنعزلين".

هزّ راشد رأسه موافقًا. كانت الرؤية واضحة، لكنها لم تكن سهلة.

في الظل، كانت هناك ضغوط خارجية

دول استعمارية لا تريد لهذا الاتحاد أن يولد.

وإمارات قلقة من ذوبان هويتها في جسم أكبر.

وشيوخ يخشون فقدان سلطتهم.

لكن زايد لم يكن يردّ بالغضب، بل بالصبر.

قال يومًا في مجلسه:

"الوقت لا يُقاس بالساعات، بل بما نغرسه فيه. وسنغرس حتىٰ تنبت الثقة".

في أحد الاجتماعات الحاسمة، رفض أحد الشيوخ فكرة الانضمام.

ارتفعت الأصوات، وشعر البعض أن المشروع ينهار.

لكن زايد ظلّ صامتًا، يُقلّب المسبحة بين أصابعه، ينظر إلىٰ وجوههم دون أن يتكلم.

ثم قال بهدوء:

"أنا لا أفرض علىٰ أحد، ولا أشتري الولاء... ولكن، من أراد أن يكون معنا، فسيجد قلبًا مفتوحًا، وأرضًا تُحب من يبنيها".

كانت كلماته كالنبع وسط العطش... تُطفئ الغضب، وتزرع اليقين.

وفي الثاني من ديسمبر عام 1971، وقف زايد على أرض الاتحاد محاطًا بشيوخ الإمارات الست.

كان الحضور رسميًا، لكن المشهد إنساني حتى النخاع.

في عينيه دمعة، وفي صوته رجفة، وفي ملامحه عمرٌ بأكمله يُتوّج الآن بكلمة واحدة:

الإمارات العربية المتحدة.

سُئل بعد ذلك بأيام:

–هل كنتَ متأكدًا أن الاتحاد سينجح؟

فأجاب:

"أنا لم أكن متأكدًا... لكني كنت مؤمنًا. والإيمان أشد من اليقين".

لم يكن حلم الاتحاد عند زايد مجرد مشروع إداري.

كان حلم هوية.

أن يُولد وطن، لا من ورق المعاهدات، بل من عرق الرجال، ودمعة الأمهات، ونبض الأرض.

زايد لم يؤسس دولة فقط، بل أسّس حكاية.

حكاية نُسجت من خيمة وكرامة، من رملٍ وصبرٍ ونخلة، من سبع إمارات كانت متفرقة، ثم اجتمعت تحت ظل شجرة واحدة، اسمها زايد.

كان إذا تحدّث عن الوطن، نظر إلى الناس... وإذا تحدّث عن الناس سبقت عيناه قلبه بالرحمة .

في حياة زايد، لم يكن الإنسان رقمًا في المعادلة، بل كان هو المعادلة كلها.

لم يُعرّف الوطن بحدوده، ولا بعَلَمه، بل بوجوه أبنائه.

كان يرىٰ في الفقير مشروعًا للكفاية، وفي المريض أمانة في رقبة الدولة، وفي العامل وجهًا من وجوه البناء.

لم يكن يفرّق بين إماراتي ومقيم، ولا بين عربي وغريب.

قالها مرارًا:

"الناس نوعان: أخٌ لك في الوطن، أو أخٌ لك في الإنسانية".

كان يزور البيوت الطينية قبل القصور.

يسأل عن الأرامل واليتامىٰ.

ذات يوم، دخل بيتًا متواضعًا في حي قديم، فاستقبلته امرأة مسنّة ملامحها متعبة، لكن عينيها تلمعان حين رأته.

قالت له:

–يا شيخ زايد، بيتنا يسرب الماء.

فقال مبتسمًا:

–من الآن، لن يسرب الماء، بل سيسرب الراحة.

في اليوم التالي، أُعيد بناء البيت بالكامل.

في الشتات العربي، لم يكن زايد حاضرًا فقط بالتصريحات، بل بالفعل.

في فلسطين، بنىٰ المدارس والمستشفيات، وقال:

"الكرامة لا تُعطىٰ، بل تُستعاد وسنعين إخوتنا حتىٰ ينهضوا".

في لبنان بعد الحرب، أرسل فرق الإغاثة حتىٰ قبل أن تُوجّه الدعوات.

وفي السودان، حين اشتد الجفاف، لم يسأل عن الموقع أو السياسة بل قال:

"أطعموا الناس، فالله لا يبارك في بيتٍ شبعان وجاره جائع".

سأله أحد الصحفيين الأجانب ذات يوم:

–لماذا تنفقون الملايين على بلدان عربية لا تربطكم بها مصالح مباشرة؟

فأجابه زايد:

"المصالح التي لا تحمل وجهًا إنسانيًا خسارة".

ولم يكن الأمر فقط خارج الحدود.

في الداخل، لم يكن الموظف يتأخر عن راتبه، لأن زايد قال:

"من يُنفق عمره في خدمة وطنه، يجب أن ينال راحته في حياته لا بعد مماته".

ذات صباح، علم أن موظفًا صغيرًا في إحدى الدوائر لا يجد أجرة المواصلات اليومية.

فأرسل له سيارة مع سائق، وقال له برسالة خطيّة:

"وظيفتك شرف، ونحن من نخدمك لتستمر".

زايد لم يكن زعيمًا يُكتب عنه، بل ضميرًا يذكّرك بما يجب أن يكون عليه الإنسان إذا امتلك السلطة.

في مجلسه، جلس الأغنياء والفقراء، الشعراء والرعاة، الأطباء والعمال.
وكان يسمعهم كلهم بنفس الأذن.

في جنازته، حين رحل، لم تبكِه الإمارات فقط.
بكاه كل من رأىٰ فيه ظلّ أب، أو سند فقير، أو ضمير حاكم نادر.

قال عنه رجل بسيط في فلسطين:

"زايد لم يُزر قريتي، لكنه وصل إليها... في المدرسة التي تعلمتُ فيها وفي السقف الذي يظلّني".

زايد لم يُرد الخلود، لكنه ناله...
لا بالتماثيل، بل بأثره في الناس،

بأفعاله التي لم تكن تنتظر تصفيقًا،

وبقلبٍ وسّع الملايين، دون أن يضيق بإنسان واحد.

الفصل الثالث

زايد. صوت الحكمة في زمن العواصف

في زمنٍ علت فيه الأصوات بالسلاح، ارتفع صوته بالحكمة في عالمٍ تقاسمت فيه المصالحُ رقابَ الشعوب، ظلّ زايد يُقاسم الناس خبزهم ودعاءهم وأحلامهم.

لم تكن الخيمة التي نشأ فيها تحجبه عن العالم.
زايد، الذي حفظ تفاصيل الرمل ووجوه القبائل، كان يرىٰ أبعد من حدود الصحراء.
كان يعرف أن الإنسان العربي ليس فقط إنسان وطنه، بل إنسان أمته.

ولذا، حين اشتدت العواصف في المنطقة، لم يكن الحياد خيارًا، ولا الانفعال أيضًا.
كان زايد وسط العاصفة، لكنه لم يفقد البوصلة.

حرب الخليج قرار بحجم التاريخ

في عام 1990، اجتاح جيش صدام حسين دولة الكويت.
كان الحدث كفاجعة سقطت علىٰ قلب الخليج، مفاجئة سوداء.

أصوات الانقسام ارتفعت في كل العواصم، وتباينت المواقف بين التنديد والخوف والمصلحة.

لكن زايد، يومها، قال جملته الشهيرة:

"الاعتداء علىٰ الكويت اعتداء علينا جميعًا... لا نُراهن علىٰ الخوف، بل علىٰ المبدأ".

لم ينتظر بيانًا من الخارج، بل دعا قادة مجلس التعاون إلىٰ اجتماع طارئ في أبوظبي

وهناك، وقف بنظرته الحادة، وقال:

"من يبرر الظلم اليوم سيتذوقه غدًا".

أرسل الدعم للكويت، ووقف مع المملكة السعودية، وساهم في تأمين الحدود، لا لأن الإمارات تملك جيشًا ضخمًا، بل لأنها تملك قلبًا لا يصمت حين يُهان الأشقاء.

زايد وفلسطين... حكاية لا تشيخ

لم يكن اسم فلسطين غريبًا في مجلس زايد.

منذ الستينات، كان يذكرها في كل خطاب، ويقول:

"هذه الأرض لا تُقاس بالأمتار، بل بمآذنها، بأشجار زيتونها وبالدمع في عيون أمهاتها".

كان أول من أمر ببناء مخيمات للاجئين، ثم أوصل الدعم المالي والطبي والثقافي.

وفي الانتفاضة الأولىٰ، قال:

"طفل يرمي حجرًا علىٰ دبابة... لا يحتاج إلىٰ سلاح، بل إلىٰ ضمير يسانده".

وحين أراد العالم أن يُسكت الصوت الفلسطيني، رفع زايد صوته في كل المحافل.

لكن صوته لم يكن صاخبًا...

بل رصينًا، مزلزلًا كالرمل حين يغضب:

"لا سلام يُبنىٰ علىٰ خوف المظلوم... ولا وطن يُبنىٰ فوق أنقاض وطن آخر".

سياسة بلا استعراض دبلوماسية بلا انكسار

زايد لم يكن يُحب الواجهة الإعلامية، ولم يراهن علىٰ العناوين الرنانة.

بل كان يرسل رسائل هادئة، لكن كلماته كانت تصل إلىٰ قلب الحدث.

في حرب البوسنة، أرسل المساعدات قبل أن تتحرك الأمم.

وفي كوسوفو، كان للإمارات مستشفىٰ ميداني قبل أن تفرش الدول موائد بياناتها.

زايد قالها بوضوح:

"الإنسان أولًا قبل الجغرافيا، قبل السياسة، قبل العناوين".

رأب الصدع العربي جسر من الرمل والطين

زايد لم يكن يحب الانقسامات.

وحين تتنازع دولتان عربيتان، لم يكن يسأل من المخطئ، بل يسأل:

"كيف نمنع الكسر من أن يتمدد؟"

كان يُرسل الوفود سرًا، يطير شخصيًا دون إعلان، يجمع الرؤوس المتخاصمة على طاولة واحدة.

لم يكن وسيطًا باردًا، بل أخًا يُلزم المتنازعين بالحكمة.

قال ذات يوم:

"الدم العربي لا يُغسله إلا العقل".

وحين سُئل:

–ماذا لو رفض الطرفان؟

أجاب بابتسامته التي يُخفي خلفها حزنه:

"إذن سنكون نحن الدولة التي حاولت أن تُطفئ الحريق... لا التي صبّت عليه الزيت".

زايد. حين تكون السياسة وجهًا من وجوه الأخلاق

لم يكن يؤمن أن الحاكم القوي هو من يخشاه شعبه.

بل هو من يُصلي الناس له في غيابه دون أن يُجبرهم.

زايد كان يرىٰ السياسة فنّ بناء الثقة لا كسب المعارك.

وكان يردد:

"لسنا في سباق مع أحد... نحن في سباق مع أنفسنا لنُحسن أكثر ونمنح أكثر، ونحيا بكرامة".

زايد، في زمن الانهيارات، كان صخرة يقف فوقها الكثيرون.

وفي زمن التنازلات، كان رجلًا يحمل تاريخه في كف، ومستقبل أمته في الأخرىٰ.

لم يُخرج سيفًا، بل أخرج كلمة.

وكم من كلمة منه كانت كأنها قافلة من الشهداء، وسارية وطن، وصوت أمّ تدعو علىٰ الحدود.

الفصل الرابع
في حضرة الوداع

لم يمت زايد بل تسرّب إلىٰ ملامحنا، في نخيلنا، في نبرة السلام التي نحيي بها الغريب، في الطمأنينة التي نشعر بها ونحن نخطو علىٰ هذه الأرض

لم يكن المرض عدوًا يُخيف زايد.
فمن واجه الصحارىٰ والمجاعات والحروب، لم يكن ليرتجف أمام تعب الجسد.

لكن في أواخر 2004، بدأ قلب الإمارات يخفق ببطء، كأنّ الأرض نفسها تتثاءب من الحزن.
في قصره، جلس زايد علىٰ سرير أبيض، تحيط به دعوات الملايين.
لم يكن الحزن في مرضه بل في فكرة أن هذا النور العظيم قد يرحل.

كان يتلقىٰ العلاج في صمت.
لا شكوىٰ، لا تذمر، فقط نظرات طويلة إلىٰ النافذة، كأنه يتأمل ما بناه، وما سيتركه.

في إحدىٰ الليالي، اقترب منه أحد أبنائه وقال:

–الناس يدعون لك في كل مكان، يا والدي.

فتح زايد عينيه المتعبتين، وقال بصوت واهن:

"قل لهم دعاؤهم وصلني وسلامهم سكن قلبي".

في اليوم الأول من نوفمبر

انخفضت الأنفاس في أبوظبي، ثم دبي، ثم كل الإمارات.

وفي الثاني من نوفمبر، أُعلن الخبر الذي لم يُرد أحد أن يسمعه:

"انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة".

نزل الخبر علىٰ الناس كما تنزل الغيوم الجافة:

ثقيلة، مؤلمة، لا تمطر، فقط تخنق.

في الشوارع، أغلقت المحلات أبوابها

وفي البيوت، كان الصمت سيد المجالس

وفي القلوب، كانت الدموع لا تكفي فزايد لم يكن شخصًا، بل وطنًا يُختصر في اسم.

في جنازته، لم يُحمَل كقائد فقط، بل كأب فقده أبناؤه جميعًا.
مشايخ الخليج، وملوك العرب، وزعماء العالم، ساروا خلف نعشه
لكن أكثر من بكاه كانوا الناس البسطاء:

–سائقٌ جاء من رأس الخيمة

–بدويٌّ من صحراء ليوا

–عاملٌ آسيوي قال: "هو أول من ناداني بـ*أخي*".

كانت السماء حزينة والغيم يزحف علىٰ أكتاف البلاد.
لكن رغم الحزن، لم تشعر الإمارات باليُتم.

زايد، كما قال أحدهم،

"لم يربّ أبناءه فقط بل ربّىٰ وطنًا كاملًا ليحمل الأمانة بعده".

وفي اليوم الثالث، وقف ابنه الشيخ خليفة بن زايد، وأعلن:

"سنبقىٰ علىٰ العهد، سائرين علىٰ درب الوالد المؤسس، أوفياء لحلمه الكبير".

في البيوت، بقيت صورته علىٰ الجدران
وفي المدارس، بقيت قصصه تروىٰ كل صباح
وفي الدساتير، بقيت كلماته روحًا بين السطور.

زايد لم يُدفن بل عاد إلىٰ الأرض التي أحبها
وغاب عن العيون، لكنه أُقيم دولةً داخل كل قلب.

من قال إن الكبار يرحلون؟
إنهم فقط يُغيرون موقعهم في الذاكرة.

زايد في أعين العالم

في كل محفل عالمي، كان اسمه يُنطق بخشوع ليس لأنه أغنىٰ العرب بل لأنه أنبلهم في زمن الندرة.

لم يكن زايد رجل الداخل فقط.
بل كان، بعين التاريخ، رجل العالم الذي علّم السياسة أن تبتسم، وأن تُشبه البشر.

في المحافل الدولية، لم يُراوغ، ولم يتملّق، ولم يقف في الصفوف الخلفية.
بل وقف واثقًا، هادئًا، يضع يده علىٰ قلبه قبل أن يضعها علىٰ الميكروفون.

في أحد خطاباته الشهيرة أمام الأمم المتحدة
قال زايد:

"نحن لا نسعىٰ للهيمنة، ولا نتدخل في شؤون أحد لكننا نؤمن بأن السلام ليس شعارًا، بل قرار يومي نعيشه ونمنحه".

بكلماته، لمس الحضور شيئًا نادرًا

شيئًا يشبه الصدق في عالمٍ مكتظٍ بالزيف.

جائزة رجل العام – باريس 1988

حين كرّمته منظمات دولية في باريس كـ"رجل العام في العمل الإنساني"،

قال المتحدث الفرنسي:

"لم نمنح الجائزة لحاكم نفط بل لرجلٍ يرىٰ النفط وسيلة لخدمة الإنسان، لا لشراء الأرض".

زايد لم يكن هناك ليصفق لنفسه.

بل أرسل ممثله برسالة مقتضبة:

"الخير لا يُكرَّم بل يُستمر فيه".

مدن بعيدة وقلوب قريبة

–في النيجر، كانت قافلات الهلال الإماراتي تصل إلىٰ قرىٰ لا تعرف حتىٰ مكان أبوظبي.

–في البوسنة، كانت عيادات ميدانية تُدار بتمويل مباشر من زايد.

–في أمريكا الجنوبية، تُرجم اسمه في تقرير أممي تحت بند "الاستجابة الإنسانية غير المشروطة."

حتىٰ صحيفة The Guardian البريطانية كتبت عام 2002:

"رغم أن كثيرًا من القادة يشترون صورتهم بالخطب، إلا أن زايد بناها بالأفعال".

منحة زايد تُعلم أبناء الأرض

في جامعة الأزهر، كان مئات الطلبة من آسيا وإفريقيا يتلقون العلم بمنح من الشيخ زايد.

وفي الهند، بُنيت مدارس كاملة على نفقته.

وفي المغرب العربي، دعمت الإمارات مشاريع ثقافية وتعليمية بإشرافه.

زايد لم يسعَ لأن يُكتب اسمه على الجدران

بل أن يُنقش في الذاكرة.

قال ذات مرة:

"العلم لا يجب أن يُباع للفقراء

إن حجبته عنهم، حجبت عن الأمة مستقبلها".

منظور الغرب لا يشبه الحاكم الشرقي المعتاد

لم يكن زايد في عين الغرب طاغية شرقيًا من كليشيهاتهم القديمة بل استثناءً نبيلًا، رجلًا ببشاشة البدو، وكرمهم، ودهاء الساسة وهدوء الزاهدين.

قال عنه دبلوماسي أمريكي في مذكراته:

"زايد لا يصرخ لكنه يقنعك.
لا يُنظّر لكنه يضعك أمام صورة لا تُناقش.
هو أقرب إلىٰ فكرة الدولة وهي ترتدي عباءة رجل".

وفي كتاب صدر عن مؤسسة "كارنيغي" بعنوان القيادة الخليجية: ما بعد النفط، خُصص فصلٌ كامل لزايد بعنوان:

"الشيخ الذي بنىٰ دولةً من الكلمات الطيبة".

زايد، في أعين العالم، لم يكن ظاهرة مؤقتة.
بل نموذجًا نادرًا جمع بين القوة والرحمة، والكرامة والتواضع.

لم يسعَ إلىٰ أن يُعجب به أحد.

لكنه جعل الجميع يحترمونه دون أن يطلب منهم شيئًا.

الفصل الخامس
إرث زايد في الإمارات الحديثة

زايد لم يُغلق عينيه إلا بعدما فتح للناس ألف باب

لم يرحل، بل استدار إلىٰ المستقبل وترك فينا خارطة الحلم .

قالها ذات يوم:

"أبني اليوم، كي لا يحتاج أبنائي غدًا إلىٰ معجزة".

وهكذا فعل.

حين تنظر اليوم إلىٰ الإمارات، إلىٰ دبي التي تعانق الغيم، وأبوظبي التي تزرع الذكاء في الرمل، والشارقة التي تُنبت الكتب، فأنت لا ترىٰ رفاهية.

بل ترىٰ أثر رجلٍ آمن أن الصحراء لا تقيّد الطموح، بل تروّضه.

الاقتصاد بعد النفط فكرٌ سبق زمنه

لم يكن زايد يعادي النفط، لكنه لم يركن إليه.

قال مبكرًا:

"النفط ثروة زائلة العلم والعمل هما الثروتان الباقيتان".

اليوم، حين تسمع عن مدن الذكاء الاصطناعي، الاقتصاد الأخضر متحف المستقبل، مسبار الأمل، محطة براكة للطاقة النووية السلمية تدرك أن كل هذا لم يكن "قفزة"، بل امتدادٌ طبيعيٌّ لرؤية بدأت من رجل بدويّ يحمل شجرة في يده، ونجمة في عينه.

زايد علّم أبناءه أن لا سقف إلا السماء، ولا عذر إلا التقاعس.

الهوية الوطنية حين تصبح الحداثة ابنةً للتراث

في زمنٍ تتشابه فيه العواصم وتتشوه الهويات، أصرّ زايد أن تبقىٰ الإمارات عربية النبض، إسلامية الروح، إنسانية الوجه.

قال مرة: نُريد أن نُعمّر المدن، دون أن نُفرّغها من روحها".

ومن هنا، تجد اليوم في قلب ناطحات السحاب بيوت الشعر، وأشجار الغاف، وقصائد النبط تُذاع بجانب تقارير الذكاء الصناعي.

في الإمارات، الحداثة لا تعني نسيان الجدّ، بل المشي على خطاه بثوب جديد.

التسامح سياسة دولة لا شعار مهرجان

لم يكن "التسامح" مجرد وزارة، بل وصية من وصايا زايد.

قال يومًا في أحد مجالسه:

"ليس القوي من ينتقم بل من يسامح ويُصلح".

وهكذا رأت الإمارات في الآخر "جارًا محتملًا"، لا تهديدًا.
افتُتح بيت العائلة الإبراهيمية، استُقبل البابا في أرض الخليج للمرة الأولى، عُقدت اتفاقيات سلام، وصداقات في كل القارات، كل ذلك، لأن زايد ربّى قادته على أن:

"القلوب حين تُفتح، تُغني عن ألف قنبلة".

المرأة ليست نصف المجتمع فقط، بل نبضه

منذ البدايات، كان زايد يقول:

"المرأة ليست عنصرًا ثانويًا بل حجر أساس".

واليوم، تجدها وزيرة، وسفيرة، وقاضية، وقائدة في مركز الفضاء.
زايد لم يُجامل النساء بل آمن بهن، وثق بعقلهن، وفتح لهن الطريق.

وهذا ما قالته الشيخة فاطمة بنت مبارك، شريكة الحلم:

"زايد لم يُعطِ المرأة صوتًا بل أنصت له منذ البداية".

في الفضاء يكتمل الحلم

حين انطلق مسبار الأمل إلىٰ المريخ عام 2021،كانت لحظة رمزية تقول للعالم: زايد لم يبنِ دولةً فقط بل أطلق فكرةً إلىٰ الكون".

قال أحد العلماء:

"هذه لحظة زايد، كما لو أنه أرسل لنا من قبره ابتسامة".

فمن كان يُصدق قبل خمسين عامًا أن أبناء البدو سيكتبون أسماءهم على كوكب آخر؟

لكن زايد كان يقول:

"حين تُؤمن، يصبح الخيال خطة، والخطة واقعًا".

إرث حيّ لا يُعلّق على الجدران

زايد لم يترك تماثيل، بل ترك بشرًا يشبهونه.

–في المعلم، تجد حلم زايد.

–في الطبيب، تجد رحمته.

–في الجندي، تجد شجاعته.

–في الموظف البسيط، تجد صدقه.

قال أحد المواطنين ذات صباح:

"حين أذهب للعمل، أقول في سري: هل سيكون زايد راضيًا لو رأى ما أفعل؟"

زايد لم يكتب دستورًا فقط بل كتبنا نحن فيه.

كل حجر في الوطن، كل ضوء، كل مستشفىٰ، كل وردة علىٰ شارع تحمل توقيعه، حتىٰ لو لم يُرَ.

وها هي الإمارات تمضي، لا تخاف الغد

لأن الغد فيها وُلد في عقل رجل، وحُفر في قلب وطن.

زايد كما يراه شعبه

ليس الزعيم من يخطب علىٰ المنابر، بل من يسكن في القلب دون أن يُنادَىٰ .

في الإمارات، لا تُقاس المحبة بالهتاف، بل بذلك الدعاء العابر علىٰ لسان الجدّات:

"الله يرحم زايد... كان في وجهه خيرنا كلنا".

كان زايد يمشي بينهم، يُصافح بيده التي شمّت رائحة التراب ويُربّت على الأكتاف لا كقائد، بل كأب يعرف أبنائه بالأسماء.

من ذاكرة راعٍ في صحراء ليوا

يحكي "عتيبة المزروعي"، راعٍ مسنّ، قائلاً:

"كنت أسوق الإبل على أطراف ليوا، ما معي إلا رغيف وموية. وقفّت عليّ سيارة، نزل منها رجل بثوب أبيض وغترة كأنها علم. سألني: 'عندك ماء؟' قلت له: 'ما يكفيني إلا لنفسي'. ضحك، وقال: 'إلاّ تشرب وترويني أنا زايد'. من ذيك اللحظة، صرت أقول: شربنا من نفس القربة أنا وشيخ البلاد".

من ممرضة فلبينية: "شيخ بعيون أم"

تروي "روزالين"، ممرضة في مستشفى المفرق:

"كنت جديدة، وارتبكت حين دخل علي رجل مهيب.

سألني عن حالة مريضة تُدعىٰ 'أم يوسف.'

قلت له: 'معلش، ما أعرف إذا حضرتك قريبها.'

قال لي: 'أنا زايد وكل عجوز في الإمارات أمّي'.

من يومها فهمت لماذا الأطباء هنا يعملون بقلب، لا بنظام فقط".

من طفل يتيم: "رأيت أبي في مجلسه"

يقول "سالم"، طفل يتيم آنذاك:

"زار مدرستنا زايد، وكان الأطفال يتحلّقون حوله، وأنا وقفت بعيد.

ناداني، وقال لي: 'ليش واقف بروحك؟'

قلت له: 'أنا ما عندي أب'.

حضنني، وقال لي: 'كلّنا آباء لك'.

أبكي كل ما أتذكر هاللحظة... لأنها أول مرة أحس إن لي سند".

من عامل آسيوي: "زايد قال لي شكراً"

يروي "رانجيت"، عامل بناء:

"كنا نعمل علىٰ مشروع حكومي، والشمس تحرق.

فجأة جاء شخص بسيط، ما توقعنا إنه مهم.

شرب من ماء العمال، وأعطىٰ كل واحد منا ظرف فيه مال وكلمة

مكتوبة بالعربية، تُرجمت لي لاحقًا:

'شكراً لأنك تبني معنا هذا الوطن'.

قالوا لي بعدها إنه الشيخ زايد".

من شاعرة: "زايد قصيدتنا التي لا تُنسىٰ"

قالت شاعرة إماراتية في مجلس نسائي:

"زايد لم يكن موضوعًا لقصائدنا بل هو القصيدة نفسها.

كان شاعر الأرض، يكتب بالعمل، لا بالوزن

يبني بيوتنا كما تُبنىٰ الأبيات،

ويحفظ عزّنا كما تُحفظ القوافي".

من جدة أمية: "كان مثل المطر يجي بدون دعوة"

قالت أم حمد، عجوز من رأس الخيمة:

"أنا ما أعرف أقرأ ولا أكتب...

لكن أعرف إن زايد ما خلّىٰ بيتنا بدون كهرب ولا مويه.

وكان يمر علىٰ ديرتنا بدون موعد مثل المطر.

يجي، ويسأل، ويضحك، ويخلي الناس تحس إن الحكومة قلب،

مش مكتب".

زايد في قلوب الأطفال والعمال والأمهات

–في المدارس، يُحكىٰ عنه لا كفقرة تاريخ، بل كـ جدّ لا يزال حيًا

في وجدان الطلاب.

–في المجالس، يُستشهد بكلماته كما يُستشهد بالآيات.

–في البيوت، صورته ليست "بروتوكولًا"، بل جزء من الذاكرة الحيّة.

زايد لم يكن يعيش في القصور فقط...

كان يعيش في لهجة الناس، في كرمهم، في صبرهم، في ابتسامتهم التي تقول دائمًا:

"زايد علمنا نكون كبار حتىٰ وإحنا بسطاء".

بعض القادة يتركون أسماءهم...

أما زايد، فترك ملامحه في ملامح كل إماراتي.

الفصل السادس
وصايا زايد الأخيرة

لم يكن يخشىٰ الموت، بل كان يخشىٰ أن تموت القيم من بعده.

في السنوات الأخيرة، كان الشيخ زايد كثير الصمت، لكن حين يتكلم، يُصبح الكلام أشبه بمرآة يرىٰ فيها الجالسون أنفسهم... ويصححون هيئاتهم أمام ما سيأتي.

لم يكتب وصيته في ورقة، بل زرعها في النفوس.

الوصية الأولى "لا وطن بلا عدل"

كان يقول دائمًا:

"العدل أساس الحكم، وهو السور الذي يحمينا من أنفسنا".

زايد لم يكن يرضىٰ أن يُظلم عامل، ولا أن تُهان امرأة، ولا أن يُهمل مواطن.
يحكي أحد القضاة أن زايد استدعاه علىٰ وجه السرعة لأنه سمع أن امرأة لم تنل حقها في قضية بسيطة.

قال له:

"العدالة لا تُؤجل لأنها إذا تأخرت، تحوّلت إلىٰ ظلم".
ثم أضاف: لا أحب أن أُسمّىٰ زعيمًا في وطن فيه مَن يُظلَم".

الوصية الثانية: "ثروة البلاد في عقول أبنائها"

في آخر لقاء له مع طلاب الجامعات، قال وهو يُمسك بكفّ شاب:

"لو خيّروني بين النفط وبين هذا الشاب لاخترت الشاب".

زايد آمن أن الجامعات أهم من الحقول، وأن الكتاب لا يقل عن البئر في منح الحياة.

ولهذا أوصىٰ أن تكون البعثات، والمدارس، والمراكز البحثية، جيوشًا تُقاتل الجهل كما يُقاتل الجندي في الحدود.

الوصية الثالثة: "لا تتركوا أحدًا خلفكم"

زايد لم يكن يرىٰ الفقير عالة، بل أمانة.

وكان يقول:

"أكره أن أرىٰ بيتًا مظلمًا في وطني.
الخير لا يُقاس بما تملكه، بل بمن تمنحه النور".

أوصىٰ أبناءه، حكّام الإمارات من بعده، بهذه العبارة التي لا تزال تُروىٰ: إذا طرق بابكم محتاج، فلا تسألوه من أين اسألوه: كيف نُعينك؟"

الوصية الرابعة: "احترموا المرأة... فإنها باب الرحمة"

زايد لم يُنادِ بتمكين المرأة ليرضي أحدًا، بل لأنه نشأ علىٰ يد أمّ علّمته أن العدل لا يُفرّق بين ذكر وأنثىٰ.

كان يقول:

"أكرموا النساء فإنهن يُربّين الملوك، ويصنعن الأوطان بصمت".

الوصية الخامسة: "لا تُخاصموا التاريخ، بل ابنوا عليه"

زايد كان يحب الشعر، ويهوى السير القديمة، لكنّه لم يكن أسيرًا للماضي.
كان يرى أن المجد الحقيقي هو أن تُنبت من التاريخ بذرة جديدة، لا أن تعيش في ظلّه فقط.

قال في مجلس الحكماء:

"نحن من صُلب العرب، لكننا لا نعيش على الأطلال.
نبني مجدنا، لا نحفظه فقط".

ولهذا ظلّت الإمارات في عهد زايد عربية، أصيلة، حديثة، قوية، بلا انفصال ولا تطرّف.

الوصية السادسة: "إذا دخلتم بيتًا... فادخلوه بالسلام"

في السياسة الخارجية، أوصى زايد أن تكون الإمارات بيتًا مفتوحًا للسلام، وأن تُحلّ الأزمات بالحكمة لا بالسلاح.

قال ذات مرة:

"لا خير في صوت يعلو فوق صوت العقل.
نُريد للإمارات أن تكون جسرًا، لا جدارًا".

الوصية السابعة: "ازرعوا ما يمكن أن يعيش أطول منكم"

في آخر جولاته على مشاريع الزراعة في العين، أمسك بغصن شجرة غاف، وقال لمرافقيه:

"أنا لن أكون هنا بعد سنوات...
لكن أريد أن يكون هذا الغصن واقفًا يظلّل طفلاً لا يعرف اسمي، ويقول: شكراً لمن زرعني".

زايد لم يكن يزرع الأشجار فقط، بل كان يزرع رجالاً، وقيمًا، ومشاريع تُثمر بعده بأجيال.

رحل زايد ولم ترحل وصاياه

لم يُكتب في وصية ورقية: "ادفنوني في كذا، وافعلوا لي كذا"... بل كأن لسان حاله كان يقول:

"ادفنوني في قلوب الناس، فإن أنصفتمهم، ذكروني، وإن ظلمتم، فأنتم لم تعرفوني".

كل الأوطان تموت حين يفقد أهلها الوصية، لكن الإمارات عاشت... لأنها لا تزال تمشي على كلامه .

الفصل السابع

زايد أسطورة عربية في زمن نادر

في زمن الضجيج العربي ولد رجل اختار أن يبني لا أن يعلو صوته.

إذا أردنا أن نُعرّف الشيخ زايد، فلن نجده في كتب الفقه السياسي ولا في مراجع السلطة التقليدية، بل سنجده هناك... في المسافة الرهيفة بين الحنكة والحِكمة، حيث يندر أن يظهر قائد... إلا إذا اجتمع فيه:

الجذر العربي الأصيل، ووعي اللحظة التاريخية، وإيمان نادر بأن الإنسان أولًا.

بين "الزعيم التقليدي" و"القائد الإنساني"

في المنطقة العربية، اعتدنا رؤية الزعيم في أحد شكلين:

إما صورة صارمة مُعلقة علىٰ الجدران، أو خطيبًا يجلجل صوته في الميكروفونات.

لكن زايد كسر القالب.
كان زعيمًا يُشبه شعبه، لا يتحدث عن الفقر، بل ينزل إلىٰ الأرض ليمنعه.

لا يهدد الخصوم، بل يبني الأصدقاء.

لا يرفع صوته، بل يرفع التعليم، والصحة، والمساكن.

زايد: مدرسة سياسية لا تُقلِّد أحدًا

زايد لم يكن تابعًا لمدرسة "القومية الصاخبة"، ولا لموجات "الاشتراكية الثورية"، ولا انغمس في "الليبرالية المنفلتة."

بل صنع مدرسته الخاصة، التي يمكن أن نُلخّصها في ثلاثة مبادئ:

الإنسان أغلىٰ الثروات

–ولهذا بُنيت الإمارات بعيون تنظر للمواطن قبل البنيان.

الاتحاد ليس شعارًا، بل فعل يومي

–زايد رأىٰ أن الوحدة لا تتحقق بالخطب، بل بالعدل بين الإمارات.

الهوية العربية لا تتناقض مع الحداثة

–جمع بين العباءة والغرس الصناعي، بين مجلس العشيرة ومطار المستقبل.

زايد في ميزان التاريخ العربي

حين نقارن شخصية زايد بتاريخ الزعامات العربية، نجده نادرًا... لأنه ببساطة لم يُشبه أحدًا.

لم يكن مثل عبد الناصر في خطبه الثورية، ولا مثل الحسن الثاني في دهائه الدبلوماسي، ولا كصدام في سطوته، ولا كالقذافي في عبثه.

كان رجلًا لا يطلب الضوء، بل يُشعل المصابيح للناس ويمضي.

لماذا أحبّه الناس؟

لأنهم رأوا فيه أنفسهم، لا فوقهم ولا خلفهم.
كان إذا وعد وفىٰ، وإذا ظهر طمأن، وإذا اختفىٰ ترك أثرًا لا يُمحىٰ.

زايد لم يكن مشروعًا سياسيًا فقط، بل رؤية حضارية، تأخذ الإنسان العربي من ركام الخوف إلىٰ أرض الأمن.

زايد والنموذج المفقود

في العالم العربي، غالبًا ما تكون العلاقة بين الحاكم والشعب قائمة علىٰ الخوف، لكن زايد أعاد تعريف هذه العلاقة علىٰ أسس:

الثقة، القرب، الشفافية،

الرعاية المستدامة.

ولهذا، فإن كل من جاء بعده، كان يُقارن تلقائيًا بـ"زايد."
هل اقترب من أسلوبه؟
هل سار علىٰ دربه؟
هل ظل الشعب يشعر بالأبوة لا بالسلطة؟

زايد في الذاكرة العربية الجمعية

زايد لم يكن فقط زعيمًا إماراتيًا، بل أصبح رمزًا عربيًا لدىٰ:

كل فلسطيني سمع بمواقفه الثابتة، وكل مصري شعر بدعمه في أوقات الأزمات، وكل عربي وجد في الإمارات ملجأً آمِنًا.

زايد رجل المستقبل

رغم رحيله، تظل رؤية زايد واحدة من أنقىٰ وأقوىٰ النماذج في الذاكرة العربية.

ولعلّ سرّه الحقيقي كان بسيطًا:

"آمن بالشعب... فآمن به الشعب".

"لم يُراهن علىٰ الخوف... بل علىٰ الحب".

"لم يبنِ سلطته... بل بنىٰ وطنًا".

في زمنٍ صاخبٍ بالحكام،

كان زايد حاكمًا صامتًا...

لكن صمته ظلّ يتكلم حتىٰ اليوم .

الفصل الثامن

زايد بين الأرض والسماء، حكاية لا تنتهي

رحل الجسد، لكن الحضور ازداد.

غابت الملامح، وبقيت البصيرة.

زايد لم يكن رجلاً عاديًا، بل نَفَس وطن يتردّد بين الأرض والسماء.

في صباحٍ هادئ، حين أعلن الرحيل، سكتت العصافير للحظة كأنها فهمت.

وغاصت المساجد في صمت طويل... كأنها فقدت أحد المآذن.

لم يكن موتًا بالمعنىٰ العادي، بل انتقالًا من صورةٍ إلىٰ أثر.

كانت الجموع تصطف في صحراء العين، رجال، نساء، شيوخ أطفال، كلٌّ يحمل دمعة وذكرىٰ، كلٌّ يقول في نفسه :لن يتكرّر.

لم يكن البكاء فقط علىٰ رجل، بل علىٰ زمنٍ كامل، اسمه :زايد.

قال أحدهم: لم أرَه يومًا، لكنه في كل صباح يمرّ علىٰ بيتنا".

وقال آخر: لم يُعطني مالًا، لكن أعطاني كرامة وهذا أعظم".

يُخطئ من يظن أن زايد قد رحل، لأن القادة يرحلون، لكن الآباء يظلون في تفاصيل كل بيت.

حين تُضاء مصابيح العلم في مدرسة نائية فزايد هناك.

حين تُبنىٰ دارٌ بلا مقابل فزايد هناك.

حين تُفتح أبواب الإمارات للاجئٍ أو محتاج فزايد هناك.

لم يمت، بل تفرّق في الأرواح.

هناك، بين النخيل وقمم المباني، بين رمل الصحراء وأجنحة الطائرات، يسكن أثر زايد.

هو الذي غرس في الأرض جذرًا، وغرس في السماء حلمًا
وغرس في الناس يقينًا أن:

"الوطن لا يُبنىٰ بالحديد، بل بالحب، والقوة لا تُقاس بالأسلحة، بل بثقة الشعوب".

كل يوم يُدرّس الأب ابنه درسًا جديدًا من "كتاب زايد:"

أن الكلمة الطيبة تُعادل جسرًا.

وأن الكرامة لا تُشترىٰ.

وأن بناء الإنسان أصعب من نحت الجبال.

كأنّ زايد يقول من البعيد:

"أنا لم أكن إلا حلقة في سلسلة الخير، فامضوا من بعدي لا تتوقفوا عند قبري، بل امشوا فوق أثر خطاي".

من قال إن الحكاية انتهت؟
زايد لم يُكتب له "النهاية" في روايتنا، لأن كل مشفىٰ يُبنىٰ، وكل مكتبة تُفتح، وكل ساعي خير يحمل طيف اسمه فهو مستمرّ.

زايد ليس تاريخًا يُدرّس فقط، بل نموذجٌ يُحتذىٰ، ليس تمثالًا في ساحة، بل روح تسكن الوطن.

وفي المشهد الأخير، نرىٰ طفلاً في زيّ مدرسي، يسأل أمه أمام صورة كبيرة لزايد: مين الراجل ده؟ ليه الناس بتحبه كده؟"

تجيبه الأم، وعيناها تلمع:

ده الحلم اللي خلىٰ بلدنا تبقىٰ زي ما هي دلوقتي".

زايد يا من مشيت علىٰ الأرض، وعلّمتنا كيف نلمس السماء

لن نقول وداعًا بل نقول: نحن علىٰ العهد .

الفصل التاسع
زايد... الحكاية التي لا تموت

بعض الناس لا يرحلون بل يكتفون بالتحوّل إلىٰ نَفَس الوطن.

لحظة الوداع من القلب إلىٰ التراب

صباحٌ حزين في "العين"، سماءٌ باكية، ونخيلٌ ساكن كأنه فقد ظلاله وجموعٌ جاءت لا لتبكي فقط، بل لتقول في صمتها:
"يا زايد... من سيسأل عنا بعدك؟"

لم تكن جنازة رجلٍ فقط، بل وداع زمنٍ بأكمله.

رأيت النساء يرفعن أيديهن بالدعاء، والرجال يطأطئون الرؤوس لا خوفًا، بل إجلالًا، والأطفال، حتىٰ الأطفال، وقفوا كأنهم أدركوا أنهم فقدوا شيئًا لا يُعوّض.

الزمان الثاني... طفل يسأل

السنوات تمضي، لكن في مدرسة صغيرة بأبوظبي، يرفع طفل يده ويسأل أمه:

"أمىٰ من هذا الرجل اللي حتىٰ نرىٰ صورته في كل مكان؟"

تضحك الأم بحرقة ممزوجة بالفخر، وتجلس معه تحت ظل علم الدولة
وتبدأ الحكاية...

"كان اسمه زايد، وكان اذا مشي... تمشي معه الأرض بثقة،
وكان اذا وقف علىٰ بيت فقير... يُصبح غنيًا بحضوره.
لا هو ملك ولا نبي، لكن كان كأنه رسالة من الله
علمنا معنىٰ الوطن، وكيف تحب بلدك ".

الطفل يُنصت، عيناه تتسعان،كأنه يسمع عن بطل من ألف ليلة
لكن لا يطير ولا يضرب بالسيف، بل يبني، ويحتوي، ويحنو.

زايد لم يكن فقط حاكمًا.
كان صوت الماء في الجدب، وظل النخلة في الهاجرة،وسقف البيت لأول من لا بيت له.

كل من سمع صوته، شعر بالأمان.
وكل من قرأ كلماته، عرف أن الحكمة لا تحتاج إلىٰ كتب، بل إلىٰ قلب نقيّ، وعقل يرىٰ بعيدًا.

زايد ما زال يُروىٰ في المجالس، في أغاني البدو، وفي خطوات مهندسٍ يضع أساس مدرسة، وفي نظرة طبيب يعالج مريضًا بلا مقابل.

زايد لا يُذكر فقط في طوابير التكريم، بل في كل عملٍ طيب في كل يدٍ تُمدّ بالعطاء، وفي كل حلمٍ يتحقق بصمت.

زايد لم يمت، لأنه تحوّل إلىٰ معنىٰ، والمعاني لا تُدفن.

وفي نهاية الكتاب ، نعود إلىٰ الطفل، وقد نام في حضن أمه، وصورة زايد ما زالت تلوح في خلفية المشهد، تبدو حيّة... كأنها تبتسم.

"يا زايد...
ستبقىٰ دائمًا الجواب حين نسأل :
من علّمنا أن الوطن ليس خريطة، بل قلب؟
من زرع فينا طمأنينة الحاضر، ونخوة المستقبل؟
من قال لنا، دون خطب، إن العدل يُرىٰ قبل أن يُقال؟"

ونختم هذا الكتاب كما بدأت:

"بعض القادة تاريخ...
لكن زايد كان مستقبلًا سابقًا لعصره".

رسالة إلى الشيخ زايد

إكرام عيد

يا أبا خالد...

لم أكن أعرفك عن قرب،
لم أجلس في مجلسك،
ولم أصافح يديك التي كانت تشبه الجبل حين يحنو.
لكنني رأيتك في كل شيء أحببته في وطني،
في الهدوء الذي لا يخلو من قوة،
وفي القوة التي لا تعرف القسوة.

يا شيخ زايد...

لم نكن فقط رعاياك،
كنا أبناءك...

وحين تمضي الأب،

يبقىٰ البيت كما هو،

لكن شيئًا في سقفه يرتجف.

علّمتنا أن الأوطان لا تُبنىٰ بالحجارة،

بل بالبصيرة.

أن قيمة الإنسان تسبق قيمة النفط،

وأن العلم سلاحٌ أطول عمرًا من السيف.

يا من كنت تمشي علىٰ الرمل بخُطىٰ واثقة،

وكنت تسمع نبض الوطن قبل أن يشتكي،

وكنت تبكي إذا ما ضاقت الأرض علىٰ أحد من شعبك...

كيف نكمل الطريق دونك؟

كيف نمشي الدرب الطويل وكل شجرة علىٰ الطريق تقول: "مرّ من هنا الشيخ زايد"؟

وكأن البلاد كلها صارت ضوءًا من أثر عينيك.

سيدي زايد...

نعدك، باسم من عرفوك ومن وُلدوا بعدك،
أن نظل علىٰ العهد.
أن نُبقي اسمك حيًّا لا في الصور فقط،
بل في الضمائر.
أن نكتبك في كل مدرسة،
ونغرسك في كل شجرة،
ونُربي أبناءنا علىٰ صوتك كما نُربيهم علىٰ الصلاة.

نم قرير العين يا أبا خالد،
فمن زرعك... لم يمت.
ومن أحبّك... لا ينساك.
ومن مشىٰ بدربك... لا يضيع.

لك المجد في الأرض...
ولنا الإرث أن نكون بقدره.

الحياةُ نَفَسٌ إذا ما طابَ في سُبُلِ العطاء

فما أبهاهُ حينَ يُخلّدُهُ الوفاء

فازرَعْ محبّةً في القلبِ تسري كالدُّعاء

وكنْ نورًا يُضيءُ دربَ مَن أتاهُ الرجاء